تكوين النخبة الفلسطينية

اسم الكتاب: تكوين النخبة الفلسطينية منذ نشوء الحركة لوطنية الى ما بعد قيام السلطة
المؤلف: جميل هلال
عدد الصفحات: ١٥٠
الطبعة الاولى: ٢٠٠٢
الناشر: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ومركز الازدن الجديد للدراسات

عرض وتعليق: سميح شبيب

يحاول هذا الكتاب التطرق إلى محددات تشكيل النخب الفلسطينية عبر مراحل مختلفة، ودراسة المتغيرات التي دخلت على هذه المحددات وحيثياتها، عبر مجموعة من الفرضيات والتفصيلات، لعل أبرزها ما يمكن إيجازه وبلورته بالتالي: »تتحكم في تحديد النخب الفلسطينية العوامل الأربعة التالية (بتداخلاتها وتداعياتها): السمة المقررة للحقل السياسي الوطني؛ والعمليات الاقتصادية والاجتماعية الجارية في كل مرحلة تاريخية؛ والعلاقة مع مركز السلطة السياسية؛ والمؤثرات الخارجية، وتحديداً الناتجة عن قيام دولة إسرائيل العام ١٩٤٨، واحتلالها لبقية أرض فلسطين العام ١٩٦٧، ثم قيام سلطة فلسطينية العام ١٩٩٤ إثر اتفاق أوسلو بين م.ت.ف وحكومة إسرائيل العام ١٩٩٣، (ص٨).

ولعل فيما ورد في هذه الفرضية العريضة، ما يستدعي طرح تساؤلات تفصيلية شتى تتناول الحقبة السياسية ما قبل النكبة وما بعدها، وصولاً لتأسيس وقيام م.ت.ف في العام ١٩٦٤، وما تلا ذلك وصولاً لقيام السلطة الفلسطينية وما ترتب على ذلك من نشوء نخب سياسية، وكذلك الوقوف عند نقطة هي في غاية الأهمية في هذا المجال، وهي استثمار النفوذ الاقتصادي لصالح توسيع النفوذ السياسي، وتأثيرات ذلك على عملية التشكل الدولاني الفلسطيني، ودراسة ماهية النخبة السياسية الفلسطينية في مرحلة ما بعد قيام السلطة، والمرتبطة أساساً بهذا النشوء السياسي ? الإداري، فهل هي مثلاً مجموعة بيروقراطية إدارية تقوم بتنفيذ سياسات محددة، أم أنها استمرار لتقاليد فلسطينية متوارثة سياسياً؟! وما هو دور المؤسسة الأمنية ? العسكرية في السلطة الفلسطينية؟ هل هي أداة تنفيذية فقط، أم أنها شريك في الحكم؟! وما هي ماهية وطبيعة العلاقة بين رئيس السلطة الفلسطينية، وتكوينات النخب السياسية؟ وما هو دور العوامل الأخرى في تكوين النخب السياسية، وأبرزها: العائلية والعشائرية والولاء الشخصي والانتماء السياسي؟ وما هي الآليات التي تحكمت في تشكيل نخب السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟ وهل كانت تلك النخب نخب مغلقة تأخذ في عين الاعتبار خصائص التكوين الجهوي والعشائري والديني في الضفة الغربية وقطاع غزة؟

لعل في هذه الفرضيات والتساؤلات، وعبر مرحلة زمنية تمتد زهاء سبعين عاماً، شهدت تقلبات سياسية واقتصادية واجتماعية عميقة وشاملة، كان أبرزها حرب ١٩٤٨ وما تمخض عنها من ثغرات شديدة العمق والتأثير، حيث تم هدم البنى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الفلسطينية على نحو شامل بعد تشتيت زهاء (٨٥٠) ألف مواطن إلى خارج ديارهم، وخضوع البقية لقوانين دولة ناشئة (إسرائيل)، أو خضوع سكان الضفة الغربية لقوانين وإجراءات واعتبارات أردنية، وتحكم القوانين والإجراءات المصرية بسكان غزة، ومن ثم قيام م.ت.ف في العام ١٩٦٤، مع ما خلقه هذا الكيان من متغيرات على صعيد اللاجئين وحركتهم السياسية والاقتصادية، ومن ثم قيام السلطة الفلسطينية، وما تمخض عنها من انتقال المركز القيادي (م.ت.ف) إلى الضفة وغزة ونشوء وانهدام نخب سياسية واقتصادية.

إلى ذلك يمكن القول إن بحث جميل هلال يهدف لإعادة قراءة التشكيل الاقتصادي ? الاجتماعي الفلسطيني خلال سبعين عاماً، وهو أمر في غاية الصعوبة والتعقيد. فإلى أي مستوى نجح الباحث فيما ذهب إليه؟!

لتحقيق هدفه ومرماه على الصعيد المنهجي، قام هلال، بتقسيم بحثه إلى خمسة أجزاء رئيسية، وهي مقدمة حول المفهوم والمنهجية، النخب الفلسطينية قبل النكبة، النخبة السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٤٨-١٩٦٧)، منظمة التحرير الفلسطينية وتشكيل النخبة السياسية الوطنية (١٩٦٧-١٩٩٤)، وملامح النخب السياسية الاقتصادية بعد قيام سلطة وطنية.

وتضاف إلى ذلك خاتمة تتضمن نظرة إجمالية لمكونات وآليات إنتاج النخب الفلسطينية. فيما يتعلق بالجزء الأول المتعلق بالمفهوم والمنهجية، يؤكد الباحث، أن بحثه ينطلق من أن تكوُّن النخب الفلسطينية الوطنية وتحديد نشأتها الاجتماعية، يستدعيان وضعها في سياق تاريخي سياسي واجتماعي؛ ذلك أن لا وجود لنخب خارج مؤسسات أو تشكيلات تنظيمية أو اجتماعية. ويعرف الكاتب النخبة بأنها: »مجموعة الأفراد الذين يحتلون مناصب أو مواقع نافذة في مؤسسات ذات سلطة أو نفوذ أو تأثير ما، وتتمثل هذه فيما يخص النخبة السياسية الراهنة في: مؤسسة الرئاسة، ومجلس الوزراء، واللجنة التنفيذية، وقيادة الأحزاب، ورئاسة المجلس التشريعي (ورؤساء لجانه الدائمة)، وربما معظم أو بعض مسؤولي الأجهزة المركزية للسلطة والمؤسسات العامة... أما النخبة الاقتصادية، فتتمثل في مجموعة الأفراد الذين يحتلون مواقع مؤثرة في الاقتصاد و(في مجالات التوظيف، والإنتاج، والتوزيع، أو الخدمات العامة أو إدارة واستثمار الأموال)، سواء في القطاع العام أم في القطاع الخاص« (ص، ١٣).

ويتناول الجزء الثاني، النخب الفلسطينية قبل النكبة، وتشكل النخب في إطار الحركة الوطنية في مواجهة الاستعمار والاستيطان الصهيوني، والعائلات الوجاهية تنتج نخبها وأحزابها السياسية، ومحددات وإشكاليات تكوين النخبة السياسية الفلسطينية قبل النكبة، وأبرزها: سيطرة العلاقات التنافسية بين أفراد النخبة السياسية، وغياب الريف والطبقة العاملة عن تشكيل النخب السياسية، وهيمنة النخب المدينية على الحقل السياسي، والحضور المتميز للمسيحيين الفلسطينيين في الحركة الوطنية، وتمتع النخبة السياسية بمستوى تعليمي عالٍ.

في الجزء الثالث، يتناول الكتاب، النخبة السياسية في الضفة الغربية وقطاع غزة (١٩٤٨ ? ١٩٦٧)، بعد التمهيد لذلك، عبر توطئة، تتناول اختفاء الحقل السياسي الوطني وغياب النخب الوطنية.

يتطرق بعد ذلك، إلى هيمنة النخب العائلية المحلية، وقراءة علاقات الطبقة والنخبة والهوية الوطنية في الضفة والقطاع ما بين النكبة وحرب العام ١٩٦٧. ويخلص الباحث من خلال ذلك، إلى أن فئة كبار ملاك الأراضي والتجار في قطاع غزة، كان لها التأثير الأوسع، وكانت الأكثر توحداً من مثيلتها في الضفة الغربية... وبأن الاحتلال الإسرائيلي سيعيد تركيب اقتصاد المنطقتين بعد أن وحدهما تحت سيطرته، وسينتج عن هذا تحول كبير في البنية الطبقية، وتحولات سياسية واسعة ارتبطت بقيام م.ت.ف كحركة تحرر وطني جامعة. (ص، ٣٧).

ويتطرق الجزء الرابع إلى م.ت.ف وتشكيل النخبة السياسية الوطنية (١٩٦٧ ? ١٩٩٤)، من خلال إعادة تشكيل الحقل السياسي الوطني ونخبه، حيث عبرت م.ت.ف عن تحول نوعي في تشكيل النخبة السياسية الفلسطينية فيما يتعلق بأربعة جوانب مهمة، هي: إنتاجها لنخبة وطنية وحقل وطني سياسي، وترتب على هذا تجديد مفردات الهوية الوطنية، وتغيير التكوين الطبقي لهذه النخب، وتحول في القاعدة الاجتماعية التي استندت إليها م.ت.ف وفصائلها، وتحول في التكوين الفكري للقيادة الجديدة، ذلك أن قيادات م.ت.ف تأثرت بنجاحات حركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث. كما يتطرق هذا الجزء إلى النخبة السياسية في الضفة والقطاع، عبر التجاذب بين الحقل الوطني والحقل المحلي، مع إيراد نماذج من النخبة الوطنية المحلية في الضفة والقطاع، والتوقف عند تحديد الهوية الوطنية والصراع على تجنيد النخب المحلية.

ويخصص الباحث الجزء الخامس، إلى دراسة ملامح النخب السياسية والاقتصادية بعد قيام سلطة وطنية عبر النقاط المركزية التالية:

× السلطة الفلسطينية تدشن حقلها السياسي وتولد نخبة جديدة.
× إشكالية تحديد النخبة السياسية الراهنة.

وتتضمن الخاتمة، نظرة إجمالية لمكونات وآليات إنتاج النخب الفلسطينية، حيث يؤكد الباحث على أن النخب السياسية الفلسطينية تكونت في إطار الحركة الوطنية الفلسطينية منذ تبلورها كحركة وطنية في العقد الثاني من القرن العشرين، ولدى تشكلها من جديد في العقد السادس من القرن العشرين، مركزاً على أن كل المحاولات التي سبق وأن جرت لتشكيل نخب سياسية ذات رصيد وطني خارج إطار الحركة الوطنية الفلسطينية قد فشلت، إلاّ أن الحركة السياسية تستند إلى بنية واقع اجتماعي ? طبقي في توليد وتجنيد النخب السياسية.

»ومن هنا برزت أهمية التحول الذي بدأ يدخل على تشكل النخب بعد قيام سلطة حكم ذاتي فلسطيني العام ١٩٩٤، والعلاقة التي بدأت في التشكل بين السلطة السياسية والسلطة الاقتصادية، وبين السلطة السياسية والعائلات الوجاهية« (ص، ١٠١).

ملاحظات منهجية

يبدو من خلال البحث أن الكاتب لجأ إلى عدة وسائل وأدوات لتحقيق هدفه، وبذلك يكون منهج بحثه أقرب إلى المنهج التكاملي، واعتمد أساساً على مراجعة الدراسات والأبحاث التي تناولت بشكل مباشر وغير مباشر، موضوعة النخب الفلسطينية عبر الفترة الزمنية التي تطرق إليها، كما أن قام بإجراء مقابلات شبه موجهة مع عينة من الشخصيات في الضفة الغربية وقطاع غزة، ممن لها أثر فاعل في مجالات عملها السياسي والاقتصادي، وشملت زهاء خمسين شخصية قيادية أو ناشطة في المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنقابي.

لقد ساعد ذلك على جمع المعلومات اللازمة، لإنجاز هذا البحث، وعلى نحو مركز ومكثف في آن معاً؛ على الرغم من اتساع المسافة الزمنية التي يتطرق إليها، والتي تغطي عملياً زهاء ثمانين عاماً متصلة.

تمكن البحث من تقديم عرض تاريخي لتكوين النخبة الفلسطينية السياسية والاقتصادية في آن، وهو عمل غير مسبوق، وبذلك يضيف الكاتب بحثاً جديداً من شأنه أن يشكل مدخلاً لدراسات متخصصة قادمة. إلاّ أن ذلك لا يعني عدم وجود بعض الملاحظات المنهجية، التي أسمح لنفسي بعرضها في ما يلي:

١. فيما يتعلق بالمصادر والمراجع، فإن ثمة نقصاً واضحاً ومؤثراً، بالفقرات الخاصة، بصراع النخب الفلسطينية ? الصهيونية قبل العام ١٩٤٨. وكان بالإمكان الاستعانة بمصادر عبرية، وهي كثيرة ومتنوعة، وبخاصة فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي، إضافة لوثائق مهمة بريطانية، وكذلك وثائق أردنية، فيما يتعلق بصراع النخب الفلسطينية ? الأردنية، وبخاصة في الأعوام ١٩٤٨-١٩٥٥، وكذلك الإجراءات والقوانين المصرية، زمن الإدارة العسكرية على قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧.

٢. هنالك إمكانية بحثية، فيما توافر للباحث الوقت اللازم، لتحليل ودراسة صراع النُخب، وبخاصة في مرحلة ١٩٩٤-٢٠٠٢؛ ذلك أن ثلاث نخب تعايشت وتصارعت على أرض واحدة، وهي النخب العائلية والعشائرية التقليدية، نخب سياسية أفرزتها الانتفاضة الأولى، نخب سياسية واقتصادية جاءت مع السلطة، وترعرعت ونمت نمواً مشوهاً وعجيباً وغريباً في ظل قوانين وإجراءات سلطوية. نشأ صراع لا يزال أواره متواصلاً ومؤثراً حتى الآن. حبذا لو تطرق البحث إلى عوامل وأشكال وآفاق هذا الصراع؛ وبخاصة أن المستقبل بات مرهوناً بما سيسفر عنه هذا الصراع.

١رام الله: مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٢، ص ١٥٤.

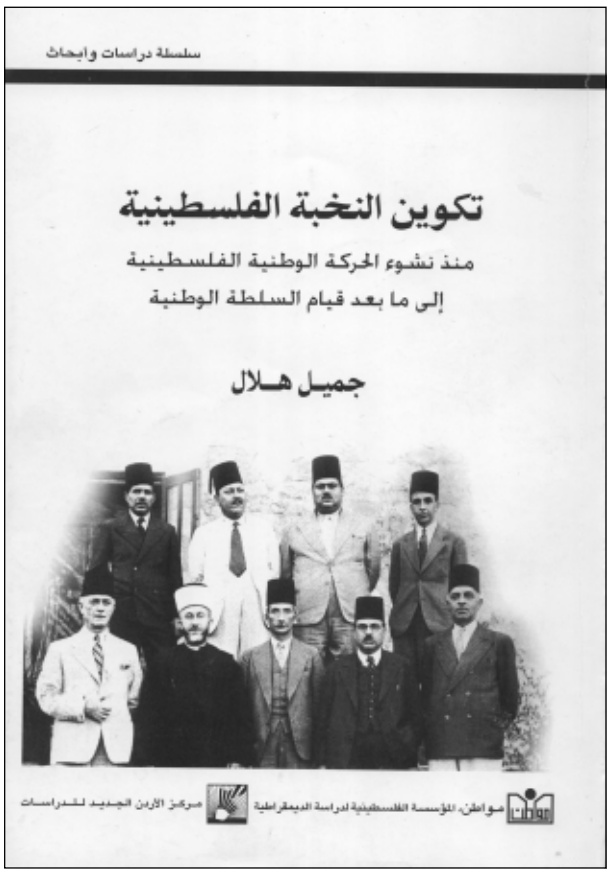

رئيس التحرير:
د. جورج جقمان

هيئة التحرير:
مي الجيوسي
أريج حجازي

المحرر المسؤول:
مهند عبد الحميد

مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
رام الله، ص.ب: ١٨٤٥
تلفون: ٢٩٥١١٠٨-٢ (٩٧٢) - فاكس: ٢٩٦٠٢٨٥-٢ (٩٧٢)
بريد إلكتروني: muwatin@muwatin.org

تصدر هذه النشرة ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة هينرخ بُل- ألمانيا
الآراء الواردة في النشرة لا تعبّر بالضرورة عن رأي مؤسسة مواطن أو مؤسسة هينرخ بُل